رابطة الجنس والثقافة فى وادى النيل

فى مقالنا السابق[1] عالجنا رابطة الماء فى وادى النيل ، ورأينا كيف أن أسباب الحياة تمتد بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وكيف أن سكان الوادى جميعاً يرتبطون بهذا النهر العظيم الذى اعتمد عليه أجدادهم واستمدوا منه الحياة منذ استقروا على ضفافه وفى جنبات واديه . ولكن هذه الدراسة التى تتصل بموارد الحياة ومقوماتها الطبيعية لا تكتمل ولا تنتهى بنا إلى صورة جلية شاملة إلا إذا عرضنا للجانب البشرى الخالص من حياة الناس ، ذلك الذى يتصل بأصل السكان وسلالاتهم من جهة ، وبثقافتهم وتراثهم الروحى والفكرى والانسانى العام من جهة أخرى . وإذا كنا فى المقال السابق قد حاولنا أن نرد الوحدة إلى بعض أصولها الطبيعية ، وأن نربطها بمقتضياتها العملية والمادية ، فان علينا فى هذا المقال أن نستعرض وجهاً آخر من تلك الوحدة ، تبرز فيه صلات الدم والأنساب بين من يقطنون الشمال ومن يقطنون الجنوب ، ويتجلى فيه ذلك الرباط الانسانى الذى يميز حياة البشر ويخلد روحها على مر العصور . وواضح أن هذا الجانب البشرى والانسانى من الوحدة فى وادى النيل لا يقل فى شأنه وروعته عن الجانب الطبيعى والمادى الذى جلوناه من قبل ؛ بل واضح أن الجانبين متكاملان ، أو هما فى واقع الأمر وجهان لصورة واحدة من هذه الوحدة الرائعة التى أرادها الله فسخر فى إخراجها موارد الطبيعة من جهة ، وزكاها بدم الانسان وروحه من جهة أخرى .

وقبل أن نعرض لمسألة الجنس والسلالة ينبغى أن نشير إلى بعض الأسس والقواعد العامة التى تقوم عليها دراسة السلالات أو الأنثروبولوجيا بناحيتيها الطبيعية والاجتماعية . وأول هذه الأسس أننا فى دراسة « الشعوب » لانستطيع

(١) الكاتب المصرى عدد ٢١ (يونيه ١٩٤٧) .

أن نفصل فصلا تاما بين دراسة التكوين الجنسى الذى يرتبط بالمميزات الجسمية ، وتعرف أبحاثه بالأنثروبولوجيا الطبيعية ؛ وبين دراسة التكوين الاجتماعى وما يتصل به من ثقافة للروح أو النفس أو الفكر ، ومن نظام للحياة والاجتماع ، ومن تقاليد تتناقلها الجماعات وتتوارثها الأجيال ، وكل ذلك يعرف بالأنثروبولوجيا الاجتماعية . ولذلك فنحن إذ ندرس شعب النيل ينبغى أن نجمع بين أطراف شتى من تكوين الجسم ، وتكوين الروح والثقافة ، وتنظيم المجتمع والحياة بما يحكمهما من تقاليد وما يستندان إليه من تراث... وذلك كله حتى نخرج بصورة هى أدنى إلى الكمال وأقرب إلى الشمول مما لو درسنا ناحية واحدة .

وثانى هذه الأسس والقواعد أننا فى دراسة « السلالات » نعتمد على صفات جسمانية محددة ، ومقاييس أو ملاحظات يتصل بعضها بشكل الرأس أو لون البشرة أو شكل الشعر أو ملامح الوجه أو طول القامة أو غير ذلك من الصفات والمميزات التى تقاس أو تلاحظ . ولكن علماء الأجناس قد مالوا فى السنوات الأخيرة إلى الشك فى قيمة تحديد « الجنس » تحديداً دقيقاً ، ومالوا إلى تقسيم البشر إلى «سلالات» تجتمع فى كل منها صفات جسمية كثيرة متداخلة ومشتركة بقدر ظاهر أو غير ظاهر بين أكثر من سلالة واحدة . وهذه السلالات لا توجد نقية خالصة مهما بدا غير ذلك لمن لا يتعمقون الأمور . بل إن علماء الأجناس الآن ينظرون إلى اختلاط الصفات وتنوع المميزات الجسمية فى مجموعة من البشر، فيرون فى ذلك علامة من علامات القوة والصلاحية للبقاء والتطور ؛ وكلما جمعت سلالة بين عدد من تلك الصفات كان ذلك دليلا على تنوع الملكات والمؤهلات بين أفرادها ؛ وذاك عامل هام فى حياة الجماعات . بل كلما جمع « شعب » بين أكثر من سلالة واحدة تمتزج فيه وتأتلف منها أمته كان ذلك مصدراً من مصادر القوة والحيوية ، على شرط أن توحد المصالح المادية والحياة الثقافية والبشرية العامة بين تلك السلالات ليتكون منها « شعب » واحد ولتأتلف منها « أمة » واحدة . والأمثلة على ذلك كثيرة فى عصرنا الحديث . فالولايات المتحدة الأمريكية تأتلف من سلالات كثيرة ، بعضها متداخل متزاوج ، وبعضها منعزل محدود الاختلاط بغيره . والاتحاد السوفيتى يأتلف من سلالات كثيرة ، بعضها

صقلبى ، وبعضها الآخر فى الشرق والجنوب وأقصى الشمال من سلالات غير صقلبية ، ولكنها مع ذلك مرتبط بعضها مع بعض برباط المصلحة المشتركة ، والثورة الاجتماعية الواحدة . وهاتان فى أمريكا وأوراسيا تجربتان هائلتان من تأليف أمة واحدة متماسكة من سلالات بشرية متباينة ، ولكن لكل منها مؤهلاته وملكاته التى تغذى ينبوع القوة فى الأمة الواحدة . بل هناك أمثلة أخرى من أمم أعرق فى التاريخ الحديث ؛ ومنها بريطانيا التى يقال إن شعبها قد امتزجت فيه دماء سلالات ثمان أو نحو ذلك ؛ وفرنسا التى تتمثل فيها ثلاث سلالات أصلية وعدد من السلالات الفرعية ، والتى تجتمع فيها صفات أهل شمال أوربا من جهة وصفات أهل الوسط والجنوب من جهة أخرى ؛ ولعل ذلك أن يكون سر القوة والحيوية فى أمتى غرب أوربا العتيدتين ، وفيما كتب لأبنائهما من تبريز متنوع المظاهر فى حياة أوربا والعالم كله فى التاريخ الحديث ، تبريزاً ظهرت آثاره فى نواحى المدنية المادية من جهة ، والحياة العقلية والفكرية وفى النظم الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى . بل إن ألمانيا ذاتها تألفت من خليط من سلالات الشمال وسلالات منطقة الجبال الألبية ؛ وعندما حاول قادتها فى العهد الأخير أن يطهروها مما أسموه خطأ « بشوائب الجنس » كان فى ذلك ما أضعف الأمة فى تكوينها الجنسى وأصاب حياتها العملية والفكرية فى الصميم ، ومهد السبيل آخر الأمر لنكبة هائلة ترتبت على أن قيادة الأمة حاولت أن تسير بها ضد طبيعة الأشياء .

وإذا نحن رجعنا إلى التاريخ القديم رأينا أمماً كثيرة أنتجت وأضافت إلى تراث الانسانية لأنها جمعت من العروق والأنساب فى دماء أبنائها ماجعلها أقدر على الحياة المتطورة والعمل المثمر المتنوع الانتاج من غيرها من الأمم والشعوب . ومن تلك الأمم القديمة أمة وادى النيل ، وهى التى سندرسها الآن بشئ من التفصيل ؛ ثم أمة اليونان حيث اختلطت دماء أهل البحر المتوسط بدماء غزاتهم الذين أتوا من الشمال ، فمهد الاختلاط لظهور المدنية اليونانية المعروفة ؛ بل منها الأمة العربية ذاتها حيث يشتد اختلاط السلالات فى العراق والشام وجنوب غرب الجزيرة ، وقد كانت كلها من مواطن نشأة المدنية العريقة فى الجزيرة العربية . . . وغير ذلك أمثلة كثيرة يغنى عن ذكرها ما أشرنا إليه .

ولأمة وادى النيل فى واديها وما جاوره من أراض ملحقة به مواطن عدة استقر بها السكان فى أعصر متلاحقة ؛ منها الشطر الشمالى من الأرض الزراعية فى مصر شمال أسوان ، ومنها تلك الأراضى الزراعية المتقطعة فى السودان بمنطقة دنقلا وبعض أراضى النيل الأزرق ، ومنها أعالى النيل فى حوض الجبل والغزال ، ثم منها أرض الرعاة والرحل فى مناطق الأعشاب بالصحارى المصرية أو بسهول السودان . وقد اتصل السكان بعضهم ببعض فى هذه المواطن المختلفة منذ أقدم العصور ؛ بل منذ بدأت الحياة المتمدنة وعرف الانسان الزراعة والرعى وما إليهما من حرف ارتفع معها الانسان من الحياة البدائية إلى الحياة المتحضرة . ويبدو أن هذه المنطقة جميعها فى شمال شرق القارة الافريقية كانت فى أول الأمر موطناً هاما من مواطن الحاميين ، وهم فريق من السلالة الكبرى التى تعرف أحياناً بالسلالة القوقازية ، والتى تعتبر سلالة البحر الأبيض المتوسط أبرز أفرعها فى المناطق المعتدلة . ويرجع استقرار هؤلاء الحاميين — أو الحاميين الشرقيين تمييزاً لهم عن البربر ومن إليهم من الحاميين الغربيين فى شمال غرب إفريقية — إلى نهاية العصر الحجرى القديم ، أو فى القليل إلى العصر الحجرى الحديث . ومن المسلم به الآن أن المصريين الأقدمين إنما اشتقوا من هذه السلالة الحامية ؛ تشهد بذلك هياكلهم القديمة ، كما تشهد لغتهم وثقافتهم . ومن الطريف أنه قد كشفت هياكل لجماعة كانت تعيش فى مصر العليا ، وتعرف حضارتها باسم حضارة البدارى — نسبة إلى بندر البدارى المعروف ، شرق النيل فى مديرية أسيوط — ويرجع تاريخ تلك الجماعة إلى الألف الخامسة قبل الميلاد ، أو مابعد الحجرى الحديث مباشرة . وتبينت من دراسة تلك الهياكل بعض أوجه الشبه فى الجنس والتكوين الجسمى بين هذه الجماعة الأولى وبين بعض العناصر الحامية التى تقطن الآن شرق السودان ، ولا سيما قبائل الهدندوة ؛ بل إن سكان البدارى الأقدمين تظهر فيهم علامات الاختلاط بين الحاميين وبعض العناصر الزنجية القديمة . وإذا صح مايرجحه الباحثون الآن فان المصريين فى ذلك العهد إنما هبط فريق منهم أرض الوادى من الجنوب ، وبقوا على صلة بأسلافهم وأنسابهم فى مناطق السودان الشرقى ، وإن كانت قد أضيفت إليهم فى شمال مصر ووسطها بعض عناصر أخرى هبطت الوادى من الشمال .

وبهما يكن من أمر فقد احتفظ المصريون الأقدمون قبل بداءة العهد التاريخي وخلال العهد الفرعونى بصفاتهم الحامية الغالبة ؛ وبقيت تلك الصفات الجنسية متوارثة فيهم حتى الآن ؛ وإن كانوا قد أضافوا إليها بعض صفاتهم السامية المكتسبة ، كما استبدلوا بثقافتهم ولغتهم القديمة لغة وثقافة أو ثقافات جديدة هى أقرب إلى العالم السامى منها إلى الحامى . . . ثم نشروا بدورهم هذه اللغة والثقافة ، بل كثيراً مما أخذوه عن الساميين من الناحية الجنسية الخالصة فى ربوع السودان الشمالى والأوسط .

وأغلب الظن أن منطقة النيل الأدنى قد تعرضت لأكثر من موجة واحدة من موجات الهجرة الكبرى فى الأعصر الأولى وقبل أن يبزغ فجر التاريخ ؛ فانحدر إليها الحاميون من الجنوب والجنوب الشرقى أول الأمر ، لا سيما فى عصر حضارة البدارى ؛ ثم جاءت موجة كبيرة من الشمال فيما يعرف بالقسم الأوسط من عصر ماقبل الأسرات ، أى خلال الألف الرابعة قبل الميلاد . وترتب على ذلك الضغط الآتى من الشمال أن اندفعت بعض العناصر من سكان مصر العليا إلى بلاد النوبة والسودان الأوسط . ولا يعرف بالضبط مدى ماوصلت إليه تلك العناصر فى انتقالها نحو الجنوب ، ولا الطريق الذى سلكته ؛ وإن كان من المعلوم والثابت الآن أنها وصلت على الأقل إلى ملتقى النيلين عند موقع الخرطوم . ومن المرجح أنها سلكت بعد ذلك طريق النيل الأزرق ، واحتكت هناك ببعض سكان أقصى الجنوب ، وربما وصل تأثيرها إلى شرق إفريقية .

والظاهر أن هذه كانت أولى موجات هامة من الشمال إلى الجنوب ، وأنه قد تلتها موجات متلاحقة فى أعصر التاريخ . ولابد أن تكون هذه الموجات قد حملت بعض العناصر الشمالية إلى الجنوب ، فاختلطت بأهله . ولكن معلوماتنا عن المؤثرات الجنسية القديمة لا تزال ضئيلة للغاية . فهذا جانب من البحث لا يزال مهملا حتى الآن ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نتتبع تلك الصلات بين أقاصى الوادى فى شماله وجنوبه إذا ما رجعنا إلى الناحية الاجتماعية والثقافية من الحياة الشعبية فى أقاصى السودان وفوق الهضبة الاستوائية من ناحية الجنوب ، وقارناها بما هو معروف عن حياة المصريين فى عصورهم الأولى قبيل التاريخ وخلال العهد الفرعونى ؛ إذ الظاهر أن كثيراً من

المؤثرات الثقافية والاجتماعية التى نفذت من مصر نحو الجنوب قدّر لها أن تعمر وأن تبقى على الزمن فى أقاصى الجنوب ، حيث لم تكن الجماعات البشرية معرضة لنزعات التجديد والاتصال بالعالم الخارجى كما كانت الحال فى مصر ذاتها ؛ ولذلك فقد كان جنوب الوادى أصلح لأن تعمر فيه النظم الاجتماعية دون أن يصيبها التغيير ، وأن تمارس فيه التقاليد والعادات القديمة دون أن يجرى عليها الزمن أو أن تجددها الأيام . وشواهد هذه الصلات القديمة بين مصر وأعالى النيل فى أقصى السودان كثيرة ؛ منها مايرجع إلى مايصح أن نسميه بالعهد الحامى الخالص ، قبل التاريخ ، عندما استقر الحاميون الشرقيون الذين أشرنا إليهم فى مناطق متباعدة بين أدانى النيل وأعاليه ؛ ومنها مايرجع إلى العهد الفرعونى ، عندما بدأت السلالات والثقافات الحامية والسامية يخالط بعضها بعضاً فى شمال الوادى ، ثم ينفذ نتاج تلك المخالطة وثمارهارويداً رويداً نحو الجنوب . وقد يفيد أن نذكر بعض شواهد الصلة الثقافية القديمة بين الشمال والجنوب ؛ فهى وإن كانت مما يهتم به علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والاثنوغرافيا أو علم وصف الشعوب ، فهى ولا شك تهم الباحث العام ؛ لأنها تلقى ضوءاً على مبلغ ما بين أطراف الوادى من صلات عريقة تمس حياة الشعب فى أسسها الأولية ، وتؤثر فيها إلى أبعد كثيراً مما قد يظن من يكتفون بالنظر إلى السطحيات .

ومن أبرز هذه الصلات مانراه متمثلا عند سكان حوض بحر الجبل والغزال، أو مايسمونه بالسودان الجنوبى أو السودان الزنجى ، وهو فى الحقيقة ليس زنجيا خالصاً،وإنما تأثر سكانه كما تأثر سكان الهضبة الاستوائية بالعناصر الحامية الشرقية ، أولئك الذين أثروا من قبل بدمائهم وثقافتهم فى بقية السودان وفى مصر بالذات . وفى حوض الجبل والغزال تعيش قبائل من النوير والرنكا وغيرهم ممن يحيون حياة الفطرة ، ولكن لهم ثقافتهم التى تتصل بثقافة مصر الأولى . وإلى جنوبهم فى أوغندة تعيش قبائل ممن يعرفون بأنصاف لحاميين ، وهم أيضاً قد اتصلت حياتهم فى نشأتها الأولى بحياة أهل الشمال. يتمثل ذلك كله فى بعض العادات المتأصلة ، ومنها نظام « الملك الإله » أو نظام « الرياسة المقدسة » ؛ وقد كان هذا النظام معروفاً فى مصر قبل قيام الأسرات ، فكان الملك أو الرئيس يحكم مدة ، حتى إذا ما أصابه الضعف خشى

أن يؤدى ذلك إلى ضعف الجماعة واضمحلال شأنها وضياع أرزاقها ؛ ذلك أن الملك أو الرئيس فى الجماعة أو القبيلة هو رمز القوة فى المجتمع ، فان كان قوى الجسم موفور العافية كان المجتمع فى خير وازدهار ؛ وإن أصابه الهزال أفل نجم المجتمع ؛ ولا يأتى الخلاص للجميع إلا بأن يضحى بالرئيس نفسه من أجل الجماعة ، ويقضى نحبه على نحو لائق يحتفل به الشعب إذ يقيم خليفته من بعده ، فتجدد الحياة فى الجماعة وينفخ فيها روح جديد . وهذا النظام القديم الذى لا يزال جارياً فى بعض صوره — رغم ما أدخل من قوانين جديدة على يد حكومة السودان — بين بعض القبائل فى السودان الجنوبى ، كالشلوك والرنكا ، وفى بعض أطراف الهضبة الاستوائية ، نشأ فيما يبدو عند القبائل الحامية الأولى وانتقل إلى مصر ، ولكنه عدل بالتدريج فى العهد الفرعونى ، وحل محله نظام آخر يقضى بالاحتفال بتجديد حيوية الرئيس ونشاطه إن أصابه الهزال ، أو طال به الحكم فناء بأعبائه ، وذلك بدلا من التضحية به أو القضاء عليه من أجل الجماعة . وتمثل التعديل فى مصر فى الاحتفال بأعياد التتويج، لا سيما بعد أن يقضى فرعون فى الحكم ثلاثين عاماً أو تزيد ، كما حدث فى حالة رمسيس الثانى وغيره . ومن الطريف أن مصر قد عادت فأنفذت بعض ماجددته وهذبته من عاداتها القديمة نحو الجنوب ، فتلقت الجماعات القديمة فى السودان ، بل فى هضبة شرق إفريقية ذاتها ، بعض مظاهر هذا التجديد فيما يعرف باحتفالات عيد « السد » وعيد « التتويج » ؛ وقد عرفت محرفة أو معدلة عند بعض الجماعات القرية فى السودان ، ولا يزال بعضها معمولا به فى صورة معدلة عند بعض قبائل أعالى النيل وأوغندة .

كذلك انتقلت بعض معالم المدنية المادية من الشمال إلى الجنوب حتى بلغت أعالى النيل ، ومنها بعض طرائق الزراعة وتربية الحيوان ورعى البقر الافريقى ذى القرون الكبيرة ؛ وقد بدأ الرعى فيما يبدو على أيدى الحاميين القدماء ثم انتقل إلى مصر ، ثم عاد فارتد إلى أعالى النيل . ومن الطريف هنا أن نلحظ أن قبائل حوض بحر الجبل لا تزال تهذب قرون ماشيتها على نحو ما كان المصريون القدماء يفعلون أيام الأسرة الخامسة الفرعونية ؛تشهد بذلك الرسوم القديمة ، إذا ماقارناها بما يجرى عليه العمل بين رعاة أعالى النيل فى الوقت الحاضر .

وكذلك امتدت صلات الثقافة ومؤثرات الشمال فشملت نواحى الفن والثقافة الروحية . فالموسيقى المصرية القديمة ، بل كثير من نواحى الموسيقى الشعبية المصرية فى الوقت الحاضر ، هى ولاشك من أصل إفريقى أو حامى قديم ؛ وقد عادت مؤثرات مصر فارتدت نحو الجنوب ؛ بل إن بعض قبائل أعالى النيل لا تزال تستخدم من الآلات الموسيقية ما يشبه ما كان يستخدم فى مصر الفرعونية . وغير الموسيقى هناك ألوان مختلفة من التشابه ؛ فبعض أمراء أوغندة لا يزالون يتخذون من النسر شعاراً أو طائراً خاصا يعتزون به، وتلك عادة مشتقة فيما يبدو من عادة تقديس الصقر فى مصر القديمة . كذلك انتشرت عبادة الشمس ذاتها من مصر إلى السودان القديم حتى امتدت مع النيل الأزرق إلى حدود الحبشة وأطراف أعالى النيل . بل إن بعض العادات الجنائزية من محاولة التحنيط وغير ذلك قد انتشرت حتى بلغت الهضبة الاستوائية وأطراف حوض الكونغو .

تلك كلها وكثير غيرها شواهد قديمة قد يرى القارئ فيها إطالة وتفصيلا يباعد بيننا وبين الوقت الحاضر . ولكن النيل فى مدنيته نهر عجيب ، قد جمع بين الماضى والحاضر فى مختلف أطرافه ، بل جمع بين أعصر ما قبل التاريخ وبين هذا العصر الذى نعيش فيه . ونحن كما ذكرنا فى مقال سابق[1] أمة تعيش فى الماضى وتحيا بتراثه بقدر ماتعيش فى الحاضر وتمتد بآماله إلى المستقبل ؛ وفى مجتمعنا المصرى بالذات كثير من العادات والتقاليد والنظم والأوضاع التى بدأت واستقرت بها الحال قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، ولكنها كانت صالحة للبقاء ، متسقة ومقتضيات البيئة ، فبقيت على الزمن ، وعمرت فى التاريخ ؛ ولعله أن يكون فى ذلك مايقربنا من أولئك الذين كان من نصيبهم أن يحيوا حياة الفطرة فى أعالى النيل وجنوب السودان ؛ بل لعله أن يكون فى ذلك مايجعلنا أقرب الناس إلى أولئك الذين يحاول المستعمرون ودعاة المدنية الغربية الحديثة أن يباعدوا بينهم وبين العالم ، وأن يقطعوا عليهم سبيل الاتصال مع بقية أبناء الوادى فى شمال السودان وفى مصر. وقد

---

(١) للكاتب مقال موضوعه «المصريون والمحافظة على القديم» . أنظر الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

ينفعنا فيما نحن بسبيله من إبراز وحدة وادى النيل ووحدة شعبه وثقافته أن نجلو معالم هذا التاريخ البعيد ، وأن نرد وحدة الجنس والروح إلى أسسها الأولى مهما بعدت وامتدت إلى عصر ماقبل التاريخ ؛ فتلك سبيلنا العلمية إلى أن نتفهم الأمور فى وضعها الصحيح ، بل تلك سبيل العلم إلى أن يتفهم العالم والناس قدر مابين مصر وجنوب السودان من صلات الأنساب وصلات الأرواح إلى جانب صلات المنافع وصلات الحياة . . . فاذا ماتبين كل هذا كان من الأولى أن يرعى أمور أولئك المساكين من أهل الجنوب الأقصى ذوو قرباهم من أهل السودان الأوسط والشمالى وأهل مصر ؛ فنحن فى تكويننا الشعبى ، ونحن بتراثنا الروحى والثقافى ، أقرب الناس إليهم ، وأولى الناس برعايتهم ؛ ونحن بحياتنا ونظمنا وثقافتنا ذات الجوانب القديمة الخالدة والجوانب الجديدة المتطورة نستطيع أن نحمل إلى الجنوب من ألوان الفكر والثقافة والنظم الاجتماعية ما يكون أدنى إلى أهله ، وأيسر تناولا مما يحاول أن يشيعه بينهم ، بل يفرضه عليهم ، جماعة المبشرين من البيض والمستعمرين ! بل نحن ولا شك بالنسبة لأهل الجنوب الأقصى بشر من الناس ؛ على حين قد تنظر بعض قبائلهم إلى البيض والمستعمرين على أنهم من أنصاف الآلهة أو أنصاف الشياطين !

كل هذا عن جنوب السودان . فأما عن وسطه وشماله ، واتصالها بمصر فى الجنس والثقافة فذلك أمره أوضح كثيراً من صلات الجنوب الأقصى بما إلى شماله . ذلك أن الحاميين القدماء لا يزالون يقطنون بادية السودان الشرقى وبعض بادية مصر الشرقية ، ويشهدون بما بين شقى الوادى وجنباته من صلة عريقة فى الدم والأنساب . ثم إن المؤثرات المصرية فى الجنس والثقافة كانت على الدوام قوية ظاهرة ، بل مستمرة دائمة ، فى شمال السودان ووسطه . وقد هاجر بعض المصريين فى أواخر عصر ما قبل التاريخ ونشروا حضارتهم ومدنيتهم فى السودان ، أو فى بعض أجزائه الشمالية ؛ واستمرت تلك الهجرات والصلات فى العهد الفرعونى ، حتى قويت فى الأسرة السادسة بصفة خاصة ؛ ونظر المصريون إلى أهل الجنوب على أنهم إخوانهم وأترابهم ، كما تشهد بذلك النقوش والنصوص . ثم تجددت الصلات وازدادت قوة فى عهد الدولة الوسطى ، عندما بدأت معالم المدنية الفرعونية المتقدمة تنتشر وتستقر استقراراً واضحاً

فى أراضى دنقلا الشمالية والوسطى . وفى عهد الدولة الحديثة ازدادت تلك الصلات قوة على قوة ، وانتشرت المدنية المصرية بل ازدهرت فى إقليم دنقلا برمته ، حتى امتدت إلى منطقة نباتا ومروى فى قلب السودان . وازداد شأن هذه المدنية المصرية — أو سمها إن شئت المدنية النيلية — حتى جاء وقت خرج فيه أبناء دنقلا ، ووحدوا أرض الوادى جميعاً فى مصر والسودان ، وأقاموا الأسرة الخامسة والعشرين فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ؛ وأقامت أرض النيل بذلك الدليل على أن الأمر بين مصر والسودان ليس أمر غلبة ولا سيادة من جانب الشمال أو من جانب الجنوب ؛ وإنما هو أمر وحدة شعبية وسياسية ، لا فرق بين أن يأتى دعاتها وحماتها من شق الوادى فى شماله أو فى جنوبه . على أن الشئ الطريف حقا من ناحية الحضارة والثقافة أن مصر الفرعونية كثيراً ما اتصلت بغير أرض النيل من أقطار الشرق الأدنى القديم ، وأعارت تلك الأقطار الشقيقة من مدنيتها وتراثها فى الحضارة والثقافة ؛ ولكن الأمر لم يتجاوز حدود ما يكون بين الجار وجاره ، بحيث إن غلبة مصر فى وقت من الأوقات على تلك البلاد أو بعضها ، أو غلبة بعض تلك الأقطار والأمم الشرقية القديمة على مصر، لم يكن من نتائجها توحيد المدنية والثقافة ، وإنما اقتصر الأمر على تبادل المؤثرات لا أكثر . أما الحال بين مصر الفرعونية والسودان فقد كان غير ذلك ؛ إذ امتدت المدنية والثقافة المصرية القديمة نحو الجنوب ، فوجدت تربة صالحة لا تختلف عن تربة النيل فى الشمال ، ووجدت شعباً هو أقرب ما يكون إلى شعبها فى تكوينه وتقاليده وتراثه بل فى استعداده ومؤهلاته واستجاباته . ولذلك كله فقد غرست المدنية المصرية فى إقليم دنقلا ووسط السودان غرساً ونمت فيه على نحو لم يكن ليختلف فى كثير عما كانت عليه المدنية والثقافة فى مصر ذاتها . ولعل هذا بمفرده يكشف عن أن ما بين أبناء النيل جميعاً إنما هو من صلات القربى وصلات الوحدة ، لا من صلات الجوار كما يصوره بعض الناس . فلولا أن الأمر كان أمر وحدة فى الطبيعة والجنس ما وجدت مدنية مصر مرتعاً خصباً فى السودان ، وما استجاب السودانيون الأقدمون لما امتدت به يد مصر والمصريين الأقدمين إليهم من مدنية وثقافة ، استجابة لم نشهد لها مثيلا بين مصر وأى شعب آخر من شعوب العالم الشرقى القديم . . . على قرب ما بينها وبين تلك الشعوب من صلات .

الأمر بين مصر والسودان إذن أعمق كثيراً من أن يكون أمر جوار. وكلما درسنا تاريخ الصلة بين شقى الوادى دراسة تقوم على البحث الصادق والاستقصاء الصحيح تكررت أمامنا الأمثلة والشواهد على أنه أمر وحدة إنسانية كما هى وحدة طبيعية. ومن الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن مصر لم تستطع أن تحبس على نفسها ثمار الثقافة مما أنتجته أرضها أو ما أصابته من الخارج، وإنما جاهدت دائما فى أن تنقل ذلك تباعاً إلى بقية أرض النيل فى السودان. ففى أواخر العهد الفرعونى امتدت المدنية المصرية من إقليم مروى إلى النيل الأزرق؛ واستمر الاتصال قائماً فى العهد المسيحى عندما نقل الدين الجديد من مصر إلى دنقلا، ثم إلى السودان الأوسط ومنطقة سنار؛ وبقيت ديانة المسيح عليه السلام قائمة مزدهرة فى السودان عدة قرون؛ بل امتدت بها الصلات إلى أرض أريترية وأثيوبيا القديمة فى وقت من الأوقات... وقد استمرت الكنيسة النوبية — كما تسمى — قائمة ومزدهرة ما دامت كنيسة مصر قوية ومزدهرة؛ ولا غرو فهى فرع منها، بل غصن من أغصانها. حتى إذا ما دب الضعف والانشقاق إلى الكنيسة القبطية المصرية بعد الفتح العربى ببضعة قرون ضعفت كنيسة النوبة واضمحلت، ثم تلاشت حوالى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد.

وعندما جاء الاسلام فتح عهد جديد فى صلات مصر والسودان فى الجنس والثقافة. ذلك أن مصر غدت طريقاً إلى السودان. والشئ الذى ينبغى أن نذكره أن العرب لم يهاجروا من الحجاز وشبه الجزيرة العربية إلى السودان عن طريق البحر الأحمر إلا فى القليل؛ وإنما هاجرت قبائلهم على الجملة بالبر إلى شبه جزيرة سينا ثم مصر، وسارت مع النيل فى شرقه أو فى غربه حتى بلغت شمال السودان. وقد بدأ تدفقها نحو الجنوب فى القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده، واشتد فى القرن الرابع عشر. وتشعبت هجرات العرب فى السودان، فاتجهوا فى شعب ثلاث، أولاها من النيل فى منطقة صعيد مصر الأعلى نحو شرق السودان، حيث اختلط الساميون بالحاميين القدماء. وثانيتها مع النيل الأعظم ذاته، ثم مع النيل الأزرق؛ كما فعلت طلائع المصريين القدماء من قبل عند بزوغ فجر التاريخ ثم فى فترات من العهد الفرعونى والعهد المروى والمسيحى بصفة خاصة. وثالثة الشعب من النيل عند دنقلا إلى دارفور وكردفان،

وأطراف بحر العرب وبحر الغزال . وعلى طول هذه الشعب الثلاث تقدمت جموع العرب تؤثر فى السكان وتكوينهم الجنسى من جهة ، وتنشر الاسلام وتعاليمه ولغته وثقافته بينهم من جهة أخرى ، وتقرب بذلك كله بين أهل السودان وأهل مصر . . . أولئك الذين ربط الدم الحامى بينهم جميعاً فى أول الأمر ، ثم زكته دماء الساميين فى موجات متلاحقة كانت آخرها تلك الموجة العربية التى بلغت قلب السودان وبعض أطرافه الجنوبية والتى كان مفروضاً أن تمضى فى سبيلها حتى ترقى الهضبة الاستوائية وتلتقى هناك بموجة أخرى عن طريق شرق إفريقية . ولكن عوامل كثيرة تضافرت على أن تضعف تلك الموجة العربية الشمالية منها أن وصول العرب إلى السودان جاء متأخراً بعض الشى ولم يعاصر عهد الثورة العربية وظهور الاسلام ، فكان توسع العرب فى السودان توسعاً طبيعيا تدريجيا ، لا غزواً سريعاً يجرف ما أمامه ، وينتهى إلى غايته فى سرعة خاطفة . ومنها أن انتشار العرب إلى السودان لم يلبث أن تبعه فى القرن السادس عشر ازدياد سلطان الأتراك العثمانيين وحلولهم محل العرب واستيلاؤهم على مصر بالذات ، وانقطاع حبل الثقافة العربية فى أرض الكنانة ، وتوقف هجرات القبائل العربية التى لم تستطع أن تتابع سيرها نحو الجنوب إلى السودان . وكذلك منها ضعف الاسلام ذاته ودخول الشرق الأدنى ومصر فى دور مظلم ، كان طبيعيا أن يتبع السودان فيه مصر ، فهو شريكها فى السراء والضراء ! وكما دخلت مصر فى عهد حالك من الاقطاع وحكم المماليك وتأخر الحياة والمدنية ، وانحلال ثقافة الروح والفكر ، دخل السودان فى عهد من الفوضى طويل ، امتاز بتشتت القبائل وضياع السلطان فيما بينها ، وتنافر المصالح بين سكان السودان ، وعدم إمكان قيام حكومة مركزية تربط بين أجزاء البلاد وتوحد مصايرها فى الفكر والثقافة . وبقيت الحال فى السودان على تلك الوتيرة حتى جاء العهد الحديث .

وقصة هذا العهد الحديث أطول من أن نسوقها فى هذا المقال ، وهى لا تزال ماثلة أمامنا ، قائمة بين ايدينا بحيث تغنى فيها الاشارة عن الاطالة . ويكفى أن نذكر أن هذا العهد الحديث قد امتاز بأن أيقظ محمد على مصر من رقادها ، ونفخ فيها من روحه ؛ فجاءت نهضتها الحديثة شاملة نواحى الحياة المادية والروحية والفكرية جميعاً . ولكن مصر فى هذه المرة أيضاً لم تكن لتستطيع أن تحبس

على نفسها كل هذا النشاط الذى بعث فيها ، وكل هذا الخير الذى أخذت سبيلها إليه ونهلت منه . فما هى إلا سنوات معدودة ، وإذا باب النيل يفتح نحو الجنوب ، وإذا طلائع مصر تبلغ إلى أعلى النهر فتحاول أن تكشف عنه ، وتجاهد فى أن تحمل مشعل النور إليه ؛ بل إذا طلائع مصر تجوس خلال السودان ، فتدعو أهله إلى الوحدة ، وتجمع شتات قبائله ودويلاته المتبثرة المفككة . وكما كان محمد على باعث النهضة فى الشمال ، فقد كان باعث الوحدة فى الجنوب ، وكانت هذه الوحدة التى بعثها أساس النهضة فى حياة السودان وأهله ، فاذا نور المدنية ينبعث فى أرجاء هذا البلد الشاسع ؛ وإذا ركب المدنية يسير مع أبناء النيل نحو الجنوب ؛ بل إذا هذا الجنوب ذاته يستجيب لهذه النهضة المباركة خلال نصف قرن أو يزيد ، فأضاء نور المدنية هذا الركن من إفريقية قبل أن يرتفع ستار التاريخ من أى جزء من أجزاء تلك القارة المظلمة . ومهما قيل عن نهضة السودان فى عهد محمد على وخلفائه ، وقصور تلك النهضة إذا ما قورنت بنهضة مصر فى نفس الفترة ، فانه ينبغى أن نذكر أن السودان كان قبل عهد محمد على قد أصابه التفكك فى الحياة والحكم إلى أبعد حد . ويكفى أن يكون السودان قد خرج من تلك الفترة بحكومة موحدة منظمة ، وبحياة لها طابعها العام الذى يوحد بين مختلف أرجاء السودان . بل يكفى أن نذكر أن عناية محمد على وخلفائه بأقصى جنوب السودان لم تكن لتقل عن عنايتهم بشماله ؛ وقد نفذ المصريون إلى بحر الغزال ، وأطراف الهضبة الاستوائية ، واستقروا فيهما كما استقروا فى شمال السودان سواء بسواء . ولم يكونوا فى ذلك إلا مستجيبين لدعاء الوحدة فى هذا الوادى المقدس ، وعلى طول هذا النهر الذى لا يملك من يعيش على مائه ويتغذى بلبانه إلا أن يهب نفسه من أجله . وقد وهب كثير من المصريين دماءهم الطاهرة من أجل بعث الحياة فى السودان ، كما وهبوا روحهم وثقافتهم ، فحملوا رسالتهم وأبلغوها إخوانهم فى أقصى الجنوب .

ولكن التاريخ يأبى إلا أن يعيد نفسه . وكما جاء الأتراك العثمانيون فى عهد من العهود فقطعوا سبيل المدنية فى الشرق العربى ، وأضعفوا موجة العرب والثقافة العربية فى شمال شرق إفريقية ، ودخلوا بالشرق العربى كله بما فيه مصر والسودان فى عهد حالك الظلام ؛ كذلك جاء دعاة الاستعمار فى العهد

الحديث فقطعوا على مصر سبيل النهضة ، وحالوا بينها وبين أن تنفذ بنورها وثقافتها ودماء أبنائها الزكية إلى بقية وادى النيل ؛ فوقفت تلك الحركة المباركة أو وُقفت ، ودخل السودان فى عهد جديد من الفوضى وسوء الحكم والادارة ، يسأل عنه من تسببوا فيه وسعوا بالقطيعة بين مصر والسودان ، أكثر مما يسأل عنه أبناء السودان أو أبناء مصر . . . بل يسأل عنه أولئك الذين لا يزالون يعملون على إطالة عهد القطيعة ، وإن أتى ذلك ضد طبيعة الأشياء .

وبعد فان حديث الوحدة الجنسية والثقافية فى وادى النيل يشمل التاريخ من أوله إلى آخره ؛ بل يبدأ فى عصر ما قبل التاريخ ، ويمتد دون انقطاع إلى الحاضر والمستقبل . وهيهات أن نستطيع أن نلم بأطرافه جميعاً فى مقال واحد مهما طال . ولكن هذه العجالة تكفى لأن تبرز لنا روعة هذا الجانب البشرى من الوحدة فى وادى النيل . وقد شاء الله تعالى أن يتخذ من هذا الوادى المبارك كنانته ، يخلق فيها فيبدع الخليقة ، ويرتب فيها فيكون فى ترتيبه الاعجاز. بل شاء الله أن يأتى ترابط الخلق ، وتناسبهم فى هذه الكنانة من ترابط الطبيعة وتماسكها ، قويا كأقوى ما يكون الاتصال والنسب ، عريقاً كأعرق ما تكون صلات القربى وروابط الأرحام . وهو قد شاء أن يكون لأهل الشمال وأهل الجنوب أصل واحد أخذوا عنه ما بقى فى دمائهم بقاء الزمن ، كما شاء أن يزداد الترابط بينهما على مر الأيام ، تذكيه صلات الدم وصلات الروح وصلات الفكر فى آن واحد . وليس يضير هذا الشعب الموحد فى وادى النيل أن تكون قد اختلطت فيه دماء الحاميين والساميين والافريقيين وأهل الشمال ؛ فذلك كله قد نوع السلالة ، ونوع مصادر الوراثة فى هذا الشعب الذى صهرته الأيام وجرت فيه الحياة من ماء النيل . وإذا كان البحث الحديث قد هدانا إلى أن نعلم عن أصولنا ما يكشف عن وحدة تسبق فجر التاريخ وتسير مع الزمن إلى آخره ، فما أحرانا أن ندرس هذه الوحدة فى مختلف صورها من حياة بنى النيل فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب . . . بل ما أحرانا أن نتلمس فى هذه الدراسة نوراً من نور الله وهدياً من هديه . . . ولئن نحن فعلنا ذلك فإننا ولا شك واجدون فيما يكشف عنه العلم والدراسة ما يذكى فى نفوسنا الايمان بهذه الوحدة

المقدسة ، وما يذكرنا رغم اختلاف السحنة وتباعد المسافات ، بما بيننا من صلات فى النسب والأرحام وروابط فى الروح والفكر والثقافة هى أقوى من أن يجرى عليها الزمان . . . ومن يدرى ! فقد يكون فى هذه الدراسة ما يزيل عن أعيننا وأعين العالم الغشاوة ، وما يخرج بوحدتنا الخالدة إلى النور . . . ولو كره المنكرون !

سليمان حزين